جمع بينها البذخ والعسكرة.. من "مدينة الحجّاج" الثقفي بالعراق إلى قاهرة المعزّ: تعرف على أبرز عواصم المستبدين في التاريخ الإسلامي

الأربعاء 19 نوفمبر 2025 03:00 م

"قَدِمَ جوهر القائد (جوهر الصقلبي قائد الجيش الفاطمي المتوفى 381هـ/992م) من الغرب (= المغرب) بعساكر المعز لدين الله (الفاطمي المتوفى 365هـ/977م)...، ومَلَك مصر واختطَّ القاهرة فصارت دار المملكة بمصر، إلى أن زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت 589هـ/1193م) فبنى قلعة الجبل، وصارت القاهرة «مدينة مصر» إلى يومنا هذا"!!

هذا النص الثمين الذي يقدمه المؤرخ تقي الدين المقريزي (ت 845هـ/1441م) -في كتابه 'المواعظ والاعتبار'- يوضح الفرق بين القاهرة بوصفها مدينة أمنية، والقاهرة باعتبارها عاصمة سياسية؛ وهو المعنى الذي أشار إليه المقريزي بتحول القاهرة إلى "مدينة مصر إلى يومنا هذا"، أي من مدينة تعبّر عن شخص الحاكم وهواجسه الأمنية إلى فضاء وطني يعبّر عن هُوِّيَّة الشعب والأمّة.

وهذه المقالة تتساءل عن العلاقة بين العمران والطغيان، كما تبحث في طبائع المدن الأمنية ومعايير إنشائها ومحددات وظائفها؛ فترصد قصص مدن "عواصم" أسّست بدوافع قمعية لإحكام القبضة الأمنية والسيطرة على حركة الناس. إن التطواف التاريخي في تقفِّي هذه الظاهرة يبدأ بمدينة واسط الأموية ثم يمر بغداد العباسية في العراق، ولا ينتهي بنظيرتيهما الفاطميتين: القاهرة في مصر والمهدية في تونس، وغيرهما من مدن "العواصم" التي اتخذها المستبدون قلاعا أمنية لحماية أنظمتهم الجائرة.

ومعروف أن المدن القمعية تَعتبر الأمن هاجسها الأول، والمقصود بالأمن هنا ليس تأمين حياة الناس وحفظ أموالهم وأعراضهم، فهذا إن قُصِد فإنما يأتي ثانيا أو ثالثا في مراتب الاعتبار؛ بل المقصود هو السيطرة السلطوية والمراقبة عبر تزويدها بأدوات الربط والضبط!! ولذلك فإن كثيرا من تلك المدن الأمنية شُرِع في بنائها بعد الفراغ من حملة أمنية مروعة ضد خصوم الدولة، أو إثر اجتياح لبلاد جديدة رأى الغازي المنتصر أن يجعل منها واسطة عقد حواضر مملكته، وبالتالي جاء تأسيس معظمها مدفوعا بهواجس القلق والذعر من أي ثورة أو معارضة محتملة.

لقد كان معتادا أن يكون قلب تلك العواصم مركزا لتوطين وتأمين الموالين المخلصين لرأس السلطة "المؤسِّس" من النخبة العسكرية والصفوة الأمنية، ولأكابر رجال الطبقة الإدارية الخادمة لمصالح السلطة السياسية، والكثير من هذه المدن كانت تستخلص من الشعب طبقات معينة تكون مضمونة الولاء فتُغدق عليها ما يوفر لها حياة رغيدة، وتحرم بقية الشعب من الالتحاق بنعيمها؛ فهي امتياز لمن يسكنها، وهي كذلك مصمَّمة بحيث لا تدع ساكنيها أحرارا بل تجعلهم يشعرون دوما بأنهم في قبضة السلطة!!

وقد يقع أن تنفكّ المدن القمعية عن سِمتها تلك التي ارتبطت بها عند تأسيسها بوصفها "قاعدة السلطان"؛ فتتحول إلى مدينة طبيعية يعيش فيها -إلى جوار السلطة أو بدونها- أناس عاديون، وهذا ما حدث في عواصم مثل بغداد والقاهرة، إذْ اتسعت الأولى وتمددت فخرجت عن حدود خطط السيطرة فسكنها عامة الناس، وعمروها -بمرور الحقب- حتى أضحت عاصمة حضارية، وهذا ما حدث أيضا للقاهرة بعد أن حررها صلاح الدين الأيوبي -وفقا لنص المقريزي السابق- من طابعها الفاطمي الاحتكاري، لتصبح "مدينة مصر" مشاعة لعامة المصريين.. وصار السلطان "متساميا" في قلعته على الجبل مطلاً عليهم من عليائه!!

وفي عصرنا اليوم يتعدد الإعلان عن إنشاء عواصم إدارية جديدة في عدد من الدول الإسلامية وغيرها، يُستعاض بها عن العواصم القائمة فتضم مقرات أجهزة الحكم في الدولة كالرئاسة والبرلمان والوزارات الرئيسية، بالإضافة إلى السفارات الأجنبية، والمطارات الدولية والعديد من المنتزهات والمرافق الخدمية. وقد تكون إحدى هذه العواصم عالية الأسوار لا يدخلها إلا الموالون للحكم، مما يُطيل بقاءها ويقيها غضبة الشعب المقهور؛ حسب آمال مؤسسها.

بيد أن هذا النمط من العواصم -كما ستكشفه هذه المقالة- ليس ابتكارا لأنظمة الحكم المعاصرة ولاسيما الاستبدادية منها، كما يظن

ذلك كثيرون؛ بل هو أمر مألوف ضاربٌ في القِدَم وله نسبٌ في الاستبداد عريق، منذ أن تولى أمرَ هذه الأمة المنقلِبون على كراسي حكمها غلبةً وقهرا طوال الـ1400 سنة الماضية، وهو ما تسعى هذه المقالة إلى توثيق أبرز نماذجه في تاريخنا الإسلامي وخاصة في قرونه الزاهرة (الأول والثاني والثالث والرابع)، وعبر جغرافيا دوله الكبرى -بمختلف انتماءاتها الطائفية- التي حكمت شعوبها باسم "الخلافة" في تلك العصور.

بدايات عراقية

1- واسط:

بعد نهاية حكم الخلفاء الراشدين واستيلاء الأمويين على سلطة الأمة بالإكراه المسنود بالقوة؛ قامت دولة الغلبة والاستبداد، فكانت أول مدينة أسست بعد المدن التي استحدثها الصحابة هي مدينة "واسط" بالعراق، التي شيدها الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ/715م) سنة 84هـ/704م لتكون "عاصمة" لحكم ولايته التي غطت الجناح الشرقي من الخريطة الإسلامية حينها، فكان قلب ولايته العراق وامتدادها ما بين الحجاز وآسيا الوسطى. ومن هنا روى ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) -في كتابه ‘معجم البلدان’- أن الحجاج هو "أول من بنى مدينة في الإسلام بعد الصحابة".

لقد كانت أرض العراق أرض ثورات وتمرّد على حكم بني أميّة؛ فرماهم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بالحجّاج أعتى قادته العسكريين وأكثرهم استخفافًا بالدماء، فأعمل فيهم السيف وقاتل المنشقين عليهم، فـ"لما فرغ من حروبه استوطن الكوفة فآنس منهم الملل والبغض له، فقال لرجلٍ ممن يثق بعقله: امضِ وابتغِ لي موضعًا.. أبْنِ فيه مدينة وليكن على نهرٍ جارٍ".

وهكذا بعث الحجاج الخبراء ليرصدوا له موضعا لمدينته الإدارية التي يحلم بها، وبعد فحص طوبوغرافي واسع استقر رأيهم على مكان ما صار مدينة "واسط". وهي وإن لم تكن "عاصمة" بالمفهوم الرسمي للكلمة فإنها كانت كذلك عمليا بحكم محورية ولاية العراق -بحدودها الإدارية آنذاك- ودورها المركزي في ترسيخ دعائم الدولة الأموية، ومن هنا جاء مسوِّغ إدراجنا لها ضمن قائمة "عواصم الاستبداد".

وقد وقع الاختيار على هذا الموقع لتوسّطه الإستراتيجي بين بؤرتيْ الثورات المتأججة: الكوفة والبصرة، فكانت "واسط" -التي سُمِّيت بهذا الاسم "لتوسطها بين مدن العراق"؛ كما يفيدنا القلقشندي (ت 821هـ/1424م) في كتابه ‘صبح الأعشَى في صناعة الإنشا’- تبعد من كلتا المدينتين خمسين فرسخًا (= 250 كلم تقريبا)، فهي بعيدة عنهما بمقدار ما يأمن الحاكم على نفسه، وقريبة منهما بمقدار ما يخشى الثوّار فيهما سطوته.

ثم إن الحجاج بناها على طراز أمنيّ عالي المستوى فكان يحيط بها سوران وخندق، ونقل إليها مؤسسات الدولة من الكوفة، وبنى فيها مسجدًا وأسواقًا لأصحاب المهن من الجزارين والحدادين، وحدائق للنزهة. واتخذ في داخلها ترتيبات أمنية شديدة فأقام على أبوابها الحرّاس، وجعلها حكرًا على العرب وحدهم بادئ الأمر، فأخرج منها النبطيين "وقال إنهم مفسدة".

وكان الحجاج لا يترك أحدًا من "أهل السواد (= القرى الزراعية) يبيت بواسط، فإذا كان الليل أخرجهم جميعًا ثم يعودون بالغداة لحوائجهم"؛ كما يروي لنا مؤرخ هذه المدينة أسلم بن سهل الواسطي المعروف بـ"بَحْشَلْ" (ت 292هـ/905م) في كتابه ‘تاريخ واسط’، وهو "أقدم تاريخ وُضِع لمدينة واسط، بل إنه من أقدم التصانيف الموضوعة في تواريخ المدن الإسلامية" إن لم يكن أقدمها على الإطلاق؛ طبقا لمحقق الكتاب الباحث العراقي كوركيس عواد (ت 1413هـ/1992م).

كما كانت المدينة على قدر عالٍ من الرفاهيّة ورغد العيش. فلتأمين الجانب البشريّ الموالي للنظام الحكم وضمان ولائهم قدمت الإدارة الجديدة تسهيلات للسكان، ودعمت السلع الغذائيّة، واشتهرت واسط -التي عُرفت تاريخيا أيضا بـ"مدينة الحَجّاج"- برخصها على مر السنين، حتى شهد لها بذلك ياقوت الحموي بقوله: "وكان الرخص موجودًا فيها من جميع الأشياء، ما لا يوصف".

وقد أرهق الحجاج ميزانية الدولة ببناء مدينته المحروسة هذه، فأنفق فيها مالية ضرائب العراق لمدة خمس سنوات؛ حسب تقديرات بَحْشَلْ الواسطي. وهكذا قامت هذه المدينة "العاصمة" على أسس المعايير الأمنية لحماية النظام الحاكم، والفساد الإداري وإهدار المال العام.

ويحكي لنا الحموي كيف احتال الحجاج على عبد الملك بن مروان (ت 86هـ/706م) ليمرر هذا الميزانيّة المليونية في بناء مدينته وقصره. فقد جعل الحجاج الجزء الأكبر من ميزانية البناء على بند وزارة الدفاع ونفقات الجيش التي لا ترقى إليها المساءلة في دول العسكر، وذلك حتى يسلم من غضبة عبد الملك: "أنفق الحجاج على بناء قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم (= اليوم 86 مليون دولار أميركي تقريبا)، فقال له كاتبه (= سكرتيره) صالح بن عبد الرحمن (التميمي المتوفى 103هـ/722م): هذه نفقة كثيرة ولو احتسبها لك أمير المؤمنين وَجَد (= غضب) في نفسه، فقال: فما نصنع؟ قال الحروب لها أجمل! فاحتسب منها في الحرب أربعة وثلاثين ألف ألف، واحتسب البناء بتسعة آلاف ألف درهم".

ولم يدخر الحجاج جهدًا في استخدام الآلة الإعلاميّة في دعم مشروعه الأمنيّ الجديد، فسخّر روايات تضفي هالة قدسيّة على المدينة بأنْبِطَرتها ليشيع فضلها بين الناس؛ إذ يروي "بَحْشَلْ" أن الحكم بن عوانة الكلبي (ت 158هـ/776م) قال: "كنت مع الحجاج وهو يرتاد موضعًا يبنيه فبينا نحن نطوف معه، إذ رأى راهبًا راكبًا على حمارٍ له، فراث الحمار، فنزل الراهب فأخذ الروث في ثوبه، فدعاه الحجاج وقال له: ماذا صنعت؟ فقال: أيها الأمير إنا نجد في كتبنا أنه لما كان يوم الطوفان انقطعت أرضٌ من الأرض المقدّسة فصارت إلى ههنا، فهي هذي. فكرهت أن يكون روث حماري فيها. فقال الحجاج: انزلوا، ثم أمر بالتقدير والبناء".

ورغم كل هذا التقدم الاقتصادي الذي أحاط بالمدينة الإدارية الجديدة، والهالة القدسيّة، والرفاه الموفّر لساكنيها الحكوميين؛ فإنها كانت من الناحية الحقوقيّة كسائر دول العسكر القمعيّة، تحفل بسجل انتهاكات وظلم رهيب. وطبقا لإحصاءات ياقوت الحموي؛ فقد "أحصِي في محبس الحجاج ثلاثة وثلاثون ألف إنسان لم يُحبسوا في دم ولا تبعة ولا دَين (= معتقلو رأي)، وأحصِي مَن قتله [الحجاج] صبرًا (= أحكام

إعدام) فبلغوا مئة وعشرين ألفًا".

2- بغداد:

في سنة 132هـ/751م؛ تقوّضت دولة الأمويين على أيدي ثوار بني العباس الذين مضى حكامهم على بِدِّنّة الحجاج في بناء مدنهم الإدارية الحصينة، التي أرادوا بها أن تقيهم من صولة الثورات الشعبيّة والانقلابات العسكرية؛ فسرعان ما بنى أول خلفائهم أبو العباس السفاح (ت 136هـ/754م) مدينة بالأنبار على شاطئ الفرات سماها "الهاشمية".

لكن السفاح توفي قبل تمام مدينته فأتمم بناءها أخوه أبو جعفر المنصور (ت 158هـ/776م) وأقام فيها، إلا أنه لم يلبث أن كره البقاء فيها بعد أن ثارت عليه جماعته "الراونديّة" التي كانت هي نصيبه من شيعة آل البيت الهاشمي، كما أن قرب المدينة من الكوفة -التي تعدّ معقلا تاريخيا للعلويين- منعه الشعور بالاطمئنان.

عزم المنصور –الذي يصفه الإمام شمس الدين الذهبي (ت 748هـ/1347م) في 'سير أعلام النبلاء' بأنه "فحل بني العباس هيبةً وشجاعة... وجبروتا"- على تأسيس عاصمة ثانية، أصبحت فيما بعد تُدعى بغداد أو "دار السلام"؛ فبعد أن أعجبه موقعها "شرع في عمارتها عام 145هـ/753م ونزلها 149هـ/757م، وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم، فانتقل عنهم يرتاد موضعًا... يبني فيه مدينة، ويكون الموضع واسطا رافقا بالعامة والجند"؛ على ما رواه الحموي.

لقد أُخِذ المنصور بميزة التحصين الأمني الذي يتيحه توسط موقع بغداد بين نهريْ دجلة والفرات، فتصير خنادق مائيّة أمام الخطر القادم من خارج المدينة، ولا يصل بين الضفتين سوى جسور يمكن تخريبها بسهولة لتصعب مهمة العبور إليها. وبالنظر إلى موقعها الجغرافي؛ يتضح لنا سبب آخر رجّح لدى المنصور اختيار هذا الموقع، نستنبطه بالنظر إلى خريطة العراق في ذلك الزمان؛ وهو أنه مال إلى جهة فارس لكثرة أنصار دولته هناك، وابتعد عن مدن العرب لما يجده لديهم من معارضة لحكمه.

ويبدو أن المنصور تنبّه لما سيدوّنه لاحقا ابن خَلْدُون (ت 808هـ/1406م) من محددات إستراتيجية يجب توفرها في بناء المدن المنيعة؛ إذ يقول –في كتابه 'المقدمة'- إن أول تلك المحددات هو "الحماية من المَضارّ، فيراعى لها أن يُدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في متمنّع من الأمكنة: إما على هضبة متوعّرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالُها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها".

بُنيت بغداد –كما يروي لنا الخطيب البغدادي (ت 463هـ/1072م) في 'تاريخ بغداد'- لتكون حصنا كبيرًا فيه جميع مرافق المقاومة -عند فرض الحصار عليها- وأسباب العيش والمصابرة، فأحاط بها سوران تفصل بينهما أرض خلوٌ من البناء والعمارة لحماية المدينة، ارتفاع الداخلي ثلاثون مترًا والخارجي دونه في الارتفاع، وكان عرض السور نحو عشرة أمتار ليصمد أمام المنجنيق، وشُيد عبر طوله نحو 113 برجا لجنود المراقبة، وجُعل للمدينة أربعة أبواب ضخمة من الحديد وأحيطت بالخنادق.

وحسب الخطيب البغدادي؛ فإن المنصور أمر "ألا يسكن تحت السور الطويل الداخل أحد ولا يبني منزلًا"، فجعل من المنطقة المقاربة من الأسوار منطقة عازلة، بحيث لا يُحفر نفقٌ من الخارج إلى إحدى دورها الملاصقة للسور، وبُنيت للمنصور قباب على مداخل المدينة يُشْرف منها على أحيائها كلها؛ وهذا خيال أمنيّ متقدم للغاية.

حشد المنصور "مئة ألف من أصناف المهن والصناعات" -كما يفيدنا المؤرخ والجغرافي أبو العباس اليعقوبي (ت بعد 292هـ/905م) في كتابه 'البلدان'- لبناء عاصمته المحصنة، ومثّل لمهندسيها هيئتها التي يريدها طالبا منهم أن يراها مجسّمة أمامه، فيما يشبه فكرة ما يُعرف اليوم -في مجال التصاميم الهندسية- بـ"النموذج المعماري" (الماكيت – Maquette).

وهكذا خُطّ للمنصور النموذج المعماري لعاصمته بخطوط هندسية، و"أمر أن يُجعل على تلك الخطوط حب القطن وينصبّ عليه النفط، فنظر إليها والنار تشتعل، ففهمها وعرف رسمها، وأمر أن يُحفر أساس ذلك على الرسم، ثم ابتُدئ في عملها"؛ كما يروي الطبري (ت 310هـ/922م) في تاريخه.

قسّم المنصور بغداد إلى أحياء "وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل رَبَضٍ (= حي سكني) سوقٌ جامعة تجمع التجارات" (مجمع تجاريّ – Mall) لأهل الحيّ، وأوصى –حسب اليعقوبي- بـ"أن يُسقّوا كل درب باسم القائد [العسكري] النازل فيه، أو الرجل النبيه (= الوجيه) الذي ينزله، أو أهل البلد الذي يسكنونه".

ولم يقصّر المنصور -رغم اشتهاره بالبخل- في إكرام رجال الجيش والدولة ليضمن ولاءهم، فأقطعهم مساحات واسعة ومهمة من المدينة الجديدة. وبنى المنصور لنفسه "قصر الذهب" أو "قصر القبة الخضراء"، وشيّد قصرًا آخر سماه "قصر الخلد" تفاؤلًا بخلود ملكه واقتباسًا ربما من "جنة الخلد"؛ ولكن الخطيب البغدادي سجّل شهادته على زوال هذا القصر بقوله: "وقد انْدَرَسَ الآن فلا عيْن ولا أثر" لبنائه!!

3- سامراء:

توالى خلفاء بني العباس حتى وصلت الخلافة إلى المعتصم (ت 227هـ/842م) الذي كان جنرالًا صارمًا، فقد وصفه الذهبي بأنه كان "ذا قوة وبطش وشجاعة". لقد أراد المعتصم أن يوطّد أركان حكمه بعيدا عن سيطرة الفُرس التي سادت أيام أسلافه وخاصة أخاه المأمون (ت 218هـ/833م)؛ فاستجلب حشودا من الجنود الأتراك لحماية عرشه، فتكوّن له منهم جيش كبير مخلص الولاء لعرشه.

ولكن ما إن قضى هذا الجيش المُوالي على كل مخاوف للخليفة حتى فتح له بابًا جديدًا من الإشكاليات، فقد غصّت "مدينة السلام" بجيش المرتزقة، وقامت فتن بين أهل بغداد والوافدين الجدد، فلاح للمعتصم خيال مدينة عسكريّة جديدة تجمعه وجيشه بعيدا عن جموع المدنيين، ويدير منها شؤون ملك خلافته العريض.

وقع اختياره على منطقة منعزلة على هضبة مطلة على دجلة، وبنى فيها سنة 221هـ/836م مدينته "سامَرّاء" -أو "سُرَّ مَنْ رأى"- على نموذج الأحياء المستقلة التي يجمع كل حي فيها مرافقه العامة من أسواق وحمامات ومساجد، كما "بنى ثمانية قصور" لنفسه؛ حسب رواية الذهبي. وغاية هذا التقسيم هي ضرب نوع من العزلة بين الجنود لضمان عدم حدوث مؤامرات ضده أو مخططات انقلابيّة تستهدفه.

بيد أن المعتصم وقع –بفكرته تلك- في خطأ جرّ على دولة بني العباس آفة لم يجدوا لها علاجا إلى أن انقرض حكمهم بعد أربعة قرون؛ وهو تمييزه لقواته الخاصة من الأتراك، ومعاملتهم بشكل استثنائي حتى خصص لهم أحياء يسكنونها دون غيرهم، فتضخّم دور الأتراك في الجيش مما خوّلهم -خلال عقدين فقط من وفاته- أن يقودوا انقلابات عسكرية على كل خليفة لا يرضيهم.

لقد كانت هذه العاصمة الإداريّة مدينة بُنيت في عهد ازدهار الخلافة العباسية، فلا تسلْ عن مدى التفنن في البناء والتكلّف في التعمير، وصارت سامراء أغنية سائرة على ألسنة الشعراء يتغنون بحسنها وجمالها وبديع بنائها، حتى قال علي بن الجهم (ت 249هـ/853م) إنها بدعة لم تعرفها الأمم من قبلنا:
بدائعٌ لم تَرَها فارسٌ ** ولا الرومُ في طول أعمارها

لقد كان قَيْدِ الخليفة المسمى "الجَوْسَق" نموذجًا لامتزاج البذخ المادي بالذهنيّة العسكريّة، فقد قام هذا القصر -الذي كان من أعاجيب البناء كما يحدثنا عالم الآثار ألاستير نورثدج في كتاب ‘أطلس سامراء الأثري’- على البذخ والتنعّم للخليفة ومواليه، وحفر وأخاديد للمعارضين والخصوم، حتى إن الآثاريين وجدوا -أثناء بحثهم في آثار القصر- أن أحد أقبيته تؤدي إلى عرين للأسود، يُتوقع أنه كانت تتم فيه عمليات إعدام للمعارضين.

لكن هذه المدينة العسكريّة لم تلبث أن أدركها الخراب والدمار، فرثاها شاعرها -الذي تحوّل عنها بعد ولادته فيها- الأمير العباسي عبد الله ابن المعتز الذي صار خليفة لمدة يوم واحد، ثم قتل في اليوم التالي لتنصيبه سنة 296هـ/909م على أيدي العسكر الأتراك الذين مكّن لهم جدُّه المعتصم؛ فقال:
قد أقفرتْ "سُرَّ مَن رَّى" ** وما لشيءٍ دوامُ
ماتتْ كما ماتَ فيلٌ ** تُسلُّ منه العظامُ

عواصم مصر

تحكي المنطقة الجغرافية التي تقوم عليها العاصمة المصرية اليوم (القاهرة) تاريخًا طويلا من النزوع المتكرر إلى استحداث المدن الإداريّة منذ الفتح الإسلامي؛ فقد نزل عمرو بن العاص (ت 43هـ/664م) بادئ الأمر وأسس فيها مدينة "الفسطاط"، وبنى هناك المسجد الجامع المعروف باسمه إلى اليوم.

ويبدو أن عقلية حكّام مصر لم يغادرها نموذج عمرو بن العاص في بنائه لمدينة إداريّة، وهو في حالة فتح عظيم للبلاد وبين ظهرانيْ الأعداء؛ فاستصحبوا هذه الحال دائمًا، بحيث تتالى -وفي دائرة نفس البقعة- بناء عواصم للدولة تنسخ إحداها الأخرى بتعاقب الدول التي حكمت البلاد، وذلك على النحو التالي:

1- العسكر:

قدِم من الشام سنة 132هـ/751م الأميرُ العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي (ت 152هـ/770م) إلى مصر، وهو يطارد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد (ت 132هـ/751م)؛ "فنزل عسكره في شمالي الفسطاط وبنوا هنالك الأبنية، فسُمي ذلك الموضع بـ «العسكر»"؛ على ما يرويه جلال الدين السيوطي (ت 911هـ/1505م) في كتابه ‘حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة’.

وقد تم بناء مدينة "العسكر" سنة 135هـ/753م وظلت قائمة حتى عمّها "الخرابُ في المحنة (= المجاعة) زمن المستنصر" بالله الفاطمي (ت 487هـ/1094م)؛ كما يقول المقريزي (ت 745هـ/1441م) في ‘المواعظ والاعتبار’.

وامتدت هذه المجاعة المصرية -التي سبَّبها توقف فيضان نهر النيل واشتهرت في كتب التاريخ بـ"الشدة المستنصرية"- سبع سنين مثل سني يوسف ، وبالتحديد ما بين سنتيْ 457-464هـ/1065-1072م؛ وبالتالي فإن خراب مدينة ‘العسكر’ سيكون بين هاتيْن السنتيْن.

2- القطائع:

بعد أن تأسست الدولة الطولونية (254-292هـ/868-905م) على يد والي العباسيين بمصر القائد التركي أحمد بن طولون (ت 270هـ/883م)، الذي قرر الانفراد بحكم البلاد مستغلا الاضطراب السياسي العاصف حينها بالبيت العباسي في مركز الخلافة بغداد؛ فبدأ سنة 259هـ/873م في بناء مدينة جديدة لتكون عاصمة إدارية للبلاد على مقاسه وسماها "القطائع".

ويقول المؤرخ المملوكي ابن تَغْري بَرْدي (ت 874هـ/1470م) -في ‘النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة’- إن "سبب بناء ابن طولون القصر و‘القطائع’ لكثرة مماليكه وعبيده، فضاقت دار الإمارة عليه، فركب إلى سفح الجبل" فاختار موضعًا مرتفعًا طيب الهواء بين مدينة ‘العسكر’ وجبل المقطم، حيث بنى عاصمته الجديدة التي سيدبّر منها شؤون دولته، وينحاز إليها بجنده وجيشه.

لقد أراد ابن طولون –الذي قال الذهبي إنه "كان يرجع إلى عدل وبذل لكنه جبّار سفّاك للدماء"- لعاصمته أن تكون على طراز سامراء المعتصم التي وُلد فيها؛ فبنى فيها مدينته وقصره، ثم وزّع الأراضي الباقية على عسكره وجنده، ولذلك سميت 'القطائع' بهذا الاسم من إقطاعه أراضي المدينة لقوّاده، وأعطى لكل فئة من أتباعه حارة مجهزة بمرافق السكن المريح. وقد أقيمت المدينة على نمط الأحياء المستقلة التي تقدم ذكر نماذجها في مدينتيْ بغداد وسامرّاء، وكان فيها "ما ينيف على مئة ألف دار"؛ حسب تقديرات المقريزي في 'المواعظ والاعتبار'.

لم تلبث القطائع أن أصبحت خرابًا بعد بنائها بقرن واحد؛ ويوضح لنا السيوطي سبب هذا الخراب بقوله إن القطائع "هدمها محمد بن سليمان الكاتب (الحنيفي المتوفى 304هـ/916م) في أيام [الخليفة العباسي] المكتفي (ت 295هـ/908م) -حنقًا على بني طولون- سنة اثنتين وتسعين ومئتين (905م)". وهو ما يؤكده الرحالة ابن حوقل (ت 367هـ/978م) الذي أفادنا بأنه حين زار مصر -في أوائل العصر الفاطمي- لم يجد سوى أطلال لهذه المدينة؛ فقال: "وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون. يسكنها جنده تُعرف بالقطائع، وقد خربت جميعا في وقتنا هذا"!!

3- القاهرة:

أسس الفاطميون دولتهم ابتداء في منطقة الغرب الإسلامي، واتخذوا مما يعرف اليوم بتونس مقرا لحكم مملكتهم، لكن عيونهم ظلت دوما ترنو للسيطرة على مصر تمهيدا للوصول إلى العراق حيث قلب العالم الإسلامي الشّني وعاصمته بغداد، وحين تمت لهم السيطرة على مصر سنة 358هـ/969م نقلوا إليها عاصمة خلافتهم. وحسب المقريزي في كتابه 'اتّعاظ الحُنَفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا'؛ فإن خليفتهم المعز لدين الله (ت 365هـ/977م) تحدّث يوما -أمام أركان دولته- عن رغبته في أن "تُبنى [بمصر] مدينة تسمى 'القاهرة' تقهر الدنيا".

وفي يوم السبت 24 جماد الأولى سنة 359هـ/971م؛ اختطّ قائد الجيش الفاطمي الغازي جوهر الصقلبي (ت 381هـ/992م) -قرب مدينة الفسطاط- موقعَ القصر الذي أعدّه لاستقبال الخليفة الفاطمي المعز، وانتهى من بنائها في نهاية سنة 361هـ/973م. وأحاط جوهرُ القصرَ والجامع بسور خارجيّ من اللبِن على شكل مربع.

ويقول يحيى الأنطاكي (ت 458هـ/1068م) -في تاريخه- إن المعز حين استقر في قصره "تقدم إلى أصحابه أن يبني كل واحد منهم. دارا ومنزلا.". ورغم كل ما كرسه الفاطميون من أدوات لكي تكون عاصمتهم مانعة لهم من قواصم السقوط؛ فإنها لم تحمهم حين قرر "وزيرهم" صلاح الدين الأيوبي (ت 589هـ/1193م) إنهاء حكمهم بمجرد قرار إداري أصدره سنة 569هـ/1173م.

الغرب الإسلامي

لقد نشأ في بلاد المغرب نمط مختلف من المدن الإداريّة كان أحيانا ذا صيغة انقلابيّة، وسنقدم أمثلة لذلك بالعواصم التالية:

1- المهديّة:

بعد أن قضى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (مؤسس الدولة الفاطميّة) على أي معارضة داخلية بتصفية داعيته المخلص أبي عبد الله الشيعي وحزبه؛ لاح له التحدي الذي ينتظره من أهل القيروان، وكانوا سنة مالكية شديدي المحافظة على مذهبهم.

ولما عجز المهدي عن إخضاع القيروانيين انتبذ عنهم مكانا قصيا، فخرج يرتاد لنفسه موضعًا على ساحل البحر يتخذ فيه عاصمة جديدة لسلطانه، فلم يجد "أحسن ولا أحصن من موضع المهديّة، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كَفٍّ متصل بزند، فتأمَّلَها فأعجبته"؛ وفق تعبير المؤرخ ابن الأثير (ت 630هـ/1233م) في كتابه 'الكامل'. وقد بدأ بناء المدينة سنة 303هـ/915م وانتهى سنة 308هـ/921م.

وطبقا لرواية أبي عُبيد البكري (ت 487هـ/1094م) في كتابه 'المسالك والممالك'؛ فقد بنى المهدي مدينته الإدارية فجاءت غاية في الحصانة والإحكام وسمّاها باسمه، ولم يكتفِ بمساحة اليابسة من المدينة بل أخذ جزءا من البحر فرَدَمَه، وحفر في الصخر ميناء للمدينة يستوعب نحو ثلاثين سفينة ومصنعًا للسفن، وبنى سورا منيعا مزودا ببرجين عظيمين للحراسة، ومدّ بينهما سلاسل تمنع دخول السفن الأجنبيّة إلى الميناء. كما أسّس مسجدًا حصينًا على هيئة قلعة، وشيّد لنفسه ولخلَفه قصرين مهيبين.

وبعد أن تم بناء المدينة الجديدة؛ انتقل إليها المهدي مع قوّاده وأهل دعوته، وأمر بأن تحوّل طرق التجارة إليها لإنعاش حركتها الاقتصادية، وعقوبة لأهل القيروان الرافضين لحكمه. وكان يمنع التجار من المبيت داخل المدينة مع الاحتفاظ ببضائعهم في السوق الداخليّ، ليأمن من العمليات الليليّة من الغرباء. وكحال مثيلاتها من المدن الإداريّة العسكريّة؛ لم تدم المهديّة طويلًا؛ فقد انتقل عنها الخليفة الفاطمي الثالث إسماعيل المنصور بنصر الله (ت 341هـ/952م)، وبنى مدينته "المنصورية" بالقرب من القيروان ثم اندثرت سريعا.

2- الزاهرة:

لم تسلم منطقة الأندلس –على كثرة مدنها العظيمة- من عدوى عواصم المستبدين المستجدة؛ ولعل أبرز نماذجها هناك مدينة "الزاهرة" التي بناها المنصور ابن أبي عامر (ت 393هـ/1004م) -حاجبُ الخليفة الأموي الصبي هشام المؤيد بالله (ت 403هـ/1013م)- بقرب قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس. قال ابن خلدون في تاريخه: "وابتنى لنفسه (= المنصور) مدينة لنُزله سمّاها 'الزاهرة' ونقل إليها جزءا من الأموال والأسلحة".

ويحكي ابن عذاري (ت بعد 712هـ/1312م) -في كتابه 'البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغرب'- العوامل النفسية الدافعة لتأسيس هذه المدينة العاصمة؛ فيقول إنه "في سنة 368هـ/979م أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره واتّقد جمره، وظهر

استبداده، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، وتوسّع في اختطاطها، وبالغ في رفع أسوارها، وصار بناؤها نبأً من الأنباء، وبنى معظمها في عامين".

وفي سنة 370هـ/981م؛ انتقل المنصور إلى مدينته الجديدة التي لا ينازعه عليها منازع، وابتعد عن أجواء قصر الخلافة في قرطبة المشحون بالخلافات والخصوم، ونقل إليها وزراءه وقوّاد الجيش، وأقطعهم فيها قصورًا باذخة.

صارت الزهراء تنافس قرطبة التي كانت جوهرة الأندلس، وسحبت منها المدينة الإداريّة الجديدة تدريجيا صلاحيات الخلافة واحدة تلو الأخرى، فصارت تُرسل إلى قصره فيها جبايات الأموال، وتعقد لديه اجتماعات أهل الحل والعقد، وصار الحكم إليه بفضل مدينته المحدثة.

وبذلك أصبح الخليفة الأموي المؤيد بالله خليفة صوريًّا لا ينهى ولا يأمر، وفرض عليه حاجبه المنصور رقابة أمنيّة عالية التشديد، حتى روى شهاب الدين المقري (ت 1041هـ/1631م) -في كتابه 'نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب'- أنه "لم يره أحد منذ ولي الحجابةَ" ابنُ أبي عامر، بل إنه كان يُخرجه من قصره ويلقي عليه لباس النساء حتى لا يتميّز عن جواريه، فلا يعرف الناس أن الخليفة يسير بينهم "ويأمر من ينحّي الناس من طريقه حتى ينتهي المؤيد إلى موضع تنزهه، ثم يعود" إلى قصره!!

طبائع متشابهة

لم نُرد -في هذه المقالة- استقصاء كل نماذج العواصم الإدارية القديمة؛ فحسبُنا ما ذكرناه من أمثلة تكشف لنا جوانب من ظاهرة عواصم أنظمة الاستبداد كما عرفها تاريخنا الإسلامي، وظلالها فيما يجري حديثا من استعادة لتلك النماذج على مستوى العقليات والسياسات. وفيما يلي نورد بعض أوجه التشابه التي بدا لنا أنها تنتظم تلك العواصم وشبيهاتها -من مدن الاستبداد والطغيان- في واقعنا الراهن:

1. عواصم مؤقتة: تخالف المدن الإداريّة التي ينشئها العسكر المدن الحضاريّة التي يعمرها الإنسان؛ فهي مشاريع مؤقتة ولا يهتم بانيها غالبا ببقائها من بعد رحيله قتلا أو موتا طبيعيا، فغاية ما يريده منها أن تحفظ له ملكه مدة عمره ثم لا يهمه أن تبيد بعد ذلك. ولم يشذ عن قاعدة فناء هذه العواصم إلا بغداد والقاهرة اللتان تمردتا على رغبات منشئيهما الأنانية، وأصبحتا عواصم ثقافية وحضارية لكل أطياف الأمة طوال تاريخهما وحتى الآن.

   ويحكي لنا ياقوت الحموي قصة تكشف مقصد الحجاج في بناء مدينة واسط، وكيف أنه ما كان مهتما بطول عمرها الافتراضي، بعد أن نبّهه صاحب الأرض لعيب في تربتها؛ فقال الحجاج: "هذا رجل يكره مجاورتنا!! فأعْلِمه أنّا سنحفر بها الأنهار ونُكثر من البناء والغرس فيها ومن الزرع حتى تَعْذُو (= يطيب هواؤها) وتطيب! وأما قوله إنها سبخة وإن البناء لا يثبت فيها؛ فسنُحكمه ثم نرحل عنه فيصير لغيرنا."!!

2. مدن أمنيّة: وهي كذلك لأنها تُبنى عادة لمنفعة فئة خاصة من الناس وحمايتها دون بقية الفئات، تلك هي فئة الموالين المخلصين من النخبة العسكرية والصفوة الأمنية والطبقة الإدارية الخادمة لمصالحهم، كما يكون تأسيسها قائما على المحاباة والفساد المالي كما استعرضناه في النماذج المذكورة.

3. مشاريع مستعجلة: العجلة في إنجاز الإنشاء صفة تشترك فيها مشاريع عواصم المستبدين الاستثنائية، فمدينتا واسط والزاهرة أنجِزت كل منهما في عامين، واستغرق تأسيس القاهرة ثلاث سنوات، أما بغداد فأخذت أربع سنوات، بينما تطلب تأسيس مدينة المهدية بتونس خمس سنوات.

   وهذه العجلة في التشييد سببها اللهفة القوية لدى المؤسسين على تحقيق هدف الاحتماء بها من الخصوم، لكنها عجلة يعقبه في الغالب زوال سريع لهذه المدن كما رأينا؛ فأكثر هذه العواصم لم يبقَ منها سوى آثار بالية، نظرا لعدم قيامها على أساس منطقي صحيح وحاجة وطنية موضوعية. فقد بقيت سامراء عاصمة للخلافة العباسية 58 سنة فقط (221-279هـ/236-892م)، ومثلها مدينة "الزاهرة" التي لم تعش إلا زهاء ثلاثة عقود، ثم أصبحت أثرًا بعد عين جراء الحرب الأهلية الماحقة التي ضربت الأندلس نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وما زال علماء الآثار الإسبان يجتهدون في تعرُّف ملامحها.

4. خزائن مستنزَفة: يبدّد إنشاء هذه العواصم خزائن الشعوب التي تعاني أصلا من شح مواردها وسوء توزيع ثرواتها، وكان بمقدور الحكام الطغاة أن يوجهوا هذه الميزانيات المهدرة إلى استصلاح مدن تخدم العامة، وإلى إقامة العدل الاجتماعي فيهم، بدل إنفاقها في مدنٍ أمنية مؤقتّة والإغداق على العُصبة الموالية، وحرمان سائر فئات المجتمع. ولكن العقلية العسكريّة عقليّة أنانية، لا تنظر إلى أبعدٍ من مصيرها الشخصي.

وفي الأخير، تبقى السمة المشتركة الأكثر لفتا للانتباه؛ هي ذلك العمى التاريخي الذي أصاب هؤلاء الحكام، إذ لم يعتبر أي منهم بالدرس التاريخي الذي سبقه إليه سلفه، ويدل على أن قيام المدن المتقدمة تقنيًا واقتصاديًا لا يعني استمرارها ولا ديمومتها، ما لم يتم الاستثمار في الرعيّة بالقيام فيهم بالعدل والقسط.

فكل المدن التي قامت كانت رائدة في عوالم الأشياء، بيد أن الإنسان فيها ظل –في الغالب- إنسانا مشغولا بنزواته المادية، فلا يكون صالحا لعمارة تلك المدن بعد أن تزول قوة العسكر البانية لها بقوة عسكرية أخرى، تكرر نفس الخطأ بإنشاء عاصمة استبداد جديدة تستلذ فيها بطغيانها حتى تجتاحها القواصم الداخلية أو الخارجية!!